نشيد نهر الصفا

عين زحلتا قرية لطيفة يعرفها اكثر الذين اعتادوا الاصطياف في جبال لبنان ؛ وألطف من القرية نفسها غابات الصنوبر التي تحيطها وأجمل من هذه وتلك منظر نهر الصفا المتدفّق عند قدم الجبل ، وعلى بعد أمتار قليلة منهُ يركض نهر القاعة

كلٌّ من النهرين يسرد حكايته الابدية على الاشجار المصغية اليهما بحللها السندسية. ويظلُّ النهران في اندفاع وشكوى، وروح الوادي تئن في أثرهما الى ان تلثم مياههما مياه البحر العظيم

في الصيف المنصرم زرت عين زحلتا لاول مرة

هنا سالت صور الكون الهيولية وذابت ذرات الاثير؛

هنا اجتمعت بلابل أرفيوس لتعيد ذكرى أوريديس ذات القاب الكسير ؛

هنا تنهدت العطور تنهداتها الغرامية ، وتحولت الورود الى أشعة سحرية ؛

هنا اغتسل قوس القزح ، فترك في الماء من ألوانه ألحاناً فضية ؛

ومن دماء الاحلام المتجمدة استخرج قوس قزح ألوانه السرمدية ؛

هنا بعث الأفق بأسراره الى الارض مع خيوط من الاثير ذهبية ؛

هنا نامت الاشباح بين أجفان بنات المياه ، فامتزج النور بالظلام وتلاشت اليقظة بالمنام ؛

هنا ناحت حمائم الشعر ، وغنّت أطيار الانغام ؛

هنا لثمات النسيم شوقٌ وهيام ؛
ومداعبة الموجة للموجة تبادلُ نظرةٍ وابتسام ؛
وجمود الشاطىء حقد على فتور الليالي ومعاكسات الأيام ؛
هنا ارتعاش الأوراق على الغصون تحية همتْ من مُقل الكواكب وسلام ؛
وتمايل الافنان ودلالها نجوى ملك الوحي والإلهام ؛
هنا ليلةُ أنوارٍ وفجرُ ظلام . وألغاز ملامسٍ وألوان وأنغام ؛
حينما يمرُّ الفجر على قمم الجبال يرى صورته في هذه المرآة البلورية ، يرى رمز الشبيبة مع ما يتبعها من جماهير الآمال النضرة كالأزهار ، والأميال المتنقلة كالأطيار . ثم يأتي الغروب ساكباً في أعماقها كلّ ما في أحزانه من المرارة مع ما يرافقها من النظرات المتحوّلة والابتسامات المتغيبة والجباه الكئيبة والشفاه المتحركة بالصلوات ، الساكنة بالتأملات
هنا عيدان الاشجان تبكي — تبكي بقلبٍ جريح . وفي كلّ لحظةٍ يخيل انها تُسلِّم نفسها الأخير بشهيقٍ فيهِ من اللوعة والكتمان والتجلد بقدر ما فيهِ من المجد والعظمة ، من البسالة وعزة النفس الأبية
لكنّ المياه لا تموت ولا تحيا ، بل تردد ذكرى الماضي ، وتهمس خفية نبؤتها في المستقبل ، وتُرادف أصوات الافراح وتُعدد آهات الاتراح
هنا لغزٌ من ألغاز الحياة وليلة من ليالي الزمان . وأنا لغز أمام هذا اللغز ، وليلة ازاء هذه الليلة . أهيم وحيدةً على الشاطىء الحزين ، أنظر ولا أرى ، أسمعُ ولا أفهم ، أفكّر ولا أجد ، أستعلم ولا أعلم . . . .

فؤادي يخفق مع فؤاد النهر الخفي ، ونفسي قيثارة الأحلام والألحان . لكني لغزٌ حيٌّ تائه في ظلّ الغصون ، ينظر مستفسراً الى لغز آخر ، فلا يجد فيهِ الاَّ صورته ، فيودّ تمزيقها وسحقها وان أحبها !

* * *

عند اختضار النهار ذهبتُ الى رأس النبع وجلست على صخرةٍ قائمة في وسط المياه المتسلسلة من صدر الصخرة الكبيرة. جلست وأرواح الخيال تستنشق الاريج العطري المعانق لشعور بنات المياه . وآلهة الأهوية الأربعة يتلاعبون بدقائق الشفق سابحين على أمواج الظلام ، وحول أشباحهم تلتفّ اكاليل البنفسج وقلائد الياسمين ، وفي ثغورهم يلمع فتيت النجوم ، بينما ابكار الشعر تسرّ لاخواتها خفايا اليأس والرجاء تحت أشجار الصنوبر ، وعذارى الطرب تستخرج من عناقيد « باخوس » خمراً تسكر بهِ ألباب الآلهة ، ومن سكر الآلهة يولد الشعراء والأنبياء

على هذه الصخرة حيث انا احلم مُثملةً بما شربَتهُ مشاعري من رحيق الخيال العلوي ، كان يجلس الامير بشير الشهابي الكبير . كثيرون من من بعده ومن قبلي جلسوا هنا وفؤاد كلٍّ منهم منقبض تهيباً وخشوعاً أمام أنفاس الطبيعة واصوات الخلود . ما يجول بخاطري الآن كان يجول بخاطرهم لان الافكار تتشابه في المصدر وفي النتيجة على رغم تعدّد شُعبها وفروعها ، والرغائب الكثيرة اللاصقة في أعماق النفس البشرية هي هي في كل آن ومكان

جميعنا طرح على النهر السؤال الذي اثار تموجاته الآن على الامواج

المتراكضة : هو سرّ الاسرار الغامضة الذي يردّده صدى الهياكل العميقة التي تشيدها المدارك في قدس اقداس البشرية : من أين والى أين ؟ من أين والى أين ؟ ؟

من أين تأتين أيتها المياه والى اين تذهبين ؟

. . . من أين أتينا والى أين نذهب ؟ . . .

المياه تتدفق فى أثر المياه مهللةً مكبرة ؛ وقد أفاضت أصواتهـا في الغناء والنحيب ، ودمدمت العناصر فيها اسرار الوارد الالهي ، ورفرفت على جوانبها اجنحة الخلود . . .

من أين والى أين . . . ؟

ثقل دماغي بافكارٍ لا ادركها ، وضاق مني الصدر لهموم لا اعرف ماهيتها فنزعت عن ساعدي ساعـة وُضعت في اسورة ذهبية ونظرت اليها قائلة : — أيتها الساعة ! انتِ رمز الوقت الجاري في نهر الزمان فيسير قاصداً بحر الابدية . ها انا اغطسك في هذه الميـاه . . . عسى ان تحفظي في حياتك المعدنية أثراً لرموز معنوية . ثم جمعت بعض الحصى الجميلة الكثيرة الالوان الراكدة في أعماق النهر ، قائلة : « أيتها الجواهر ! سأحملك معي الى وادي النيل لتذكريني بالعواطف الكثيرة التي تلاطمت في فؤادي أمام نهر الصفا . . . أنتِ ذكر الابدية التي حييت فيها لحظة »

واذ رفعت عيني الى الافق رأيت مقلة الزهرة ترقب يد ملاك الظلام الراسمة على رداء الليل صوَر الهيئات السماوية

فغادرت رأس الشبع مرددة : أنهر الصفا ! من أين والى أين ؟

* * *

أنهرَ الصفا ! جئتك تعبة الروح والجسد معاً

قرأت خلاصة الاحوال الحاضرة فدوت في جوانب مخيلتي اصوات المدافع ، وتمثلت لناظري صوَر الحرب المريعـة . ثم قصدت الاجتماعات فملأ اذني ضجيجها التافه . وضجرت نفسي من معانيها السطحيـة — ان لم تكن خبيثة . عجبت من بلاهة الانسان ومن ركاكة امياله وفتور همته . اذ ذاك سمعت اسمك الموسيقي فاحببته لان فيهِ جمالاً وعذوبةً وسلاماً

لقد احرقت قدميَّ الرمال الحارة ، ومزَّقت يدي اشواك الحيـاة ، فجئت اليك لاستخلص من اعشابك بلسمًا لجروحي . تعلَّقَ بأهدابي غبارُ المادة محاولاً إخفاء الجمال المنطوي عن عينيَّ ، فأتيت لاغسل أهدابي بمياهك المقدسة

جئت لأرطب يديَّ وعينيَّ برضابك العذب

ثقل فؤادي عليَّ ، فأسرعتُ لأبعث به سمك الى روح البحر العظيم الذي يناديك اليهِ من عمق اعماق زرقتهِ البعيدة

أنت ابن الغيوم ، وألعوبة الحرارة الهوائية ، وضحكة المادة الدائمة ، وتهتهة الجوّ بين الهضاب والأودية . أنت قبلة الشمس للبحر . أنت أنشودة الجبل في الوادي . أنت الروح الصغيرة المسرعـة الى احضان الروح الكبيرة

أنت جميل كأسرار الجنان . عذب كنظرات الولهان

وفي اسمك ألوان وألحان

أنت تهمم بي ، أيها النهر ، خذني معك بعيداً عن الحياة وضوضائها خذني معك . . . لكن ، ما هي نسبتي اليك ؟

أنت مجموع سوائل لا وجدان لها ، ولا قلب يخفق بين اجزائها . وانا . . . انا شيء آخر . أنت لغز بين البحار والآفاق ، وانا لغز بين الحياة واللانهاية . انا اعرف اني لا افهمك ، واشعر بجهل الانسان وشقائهِ ، اما انت . . . ما لنا ولك ؟

سيري ، أيتها المياه ، سيري واتركيني . أسقي النباتات والاعشاب ، ضعي لآلئ في أفام الورود ، رطّبي صدر الارض الملتهب ، ترنمي في وحدة الوادي ، اسردي حكاياتك التي لا تنتهي ، اندبي ، هللي ، اصرخي ، اهمي ، انشدي ، انحبي ، اطربي ، احزني . كل هذا ننسبه اليكِ نحن ابناء الطرب والكآبة

سيري ، ايتها المياه ، ودعيني ابكي . لقد تلبَّد جوّ فكري بالغيوم القاتمة . وقلبي — مالكِ ولهُ ! — منفرد حزين . . .

ص

﴿ الشكوكيُّون ﴾

ليس شيء من أمور الدنيا الاّ وهو معرَّض للشك حتى قال بعض الفلاسفة : ان كل شيء يقبل الشك حتى قولي هذا : « ان كل شيء يقبل الشك » ومن بين الفلاسفة طائفة يعرفون بأهل الشكوك يشكون في كل شيء حتى في وجود ذواتهم

محمد الموبلحي